علوم الاوائل والاواخر

استاذ اميركي بنصف الشرقيين

الدكتور عبد الرحمن شهبندر

يسرنا ان يكون للمصريين معالجة شؤونا القومية جولات في ميادين الملمات الدلية تدل على رسوخ قدمهم فيها وتمشيهم على قواعدها كما يليق من ترامة هذه العقالة وهذا احد البراهين على ان القضايا الوطنية في الشرق لا تنطبق عنها تهمة بعض الغربيين بانها حركات اندفاعية مرتجلة بل هي اصلاح اجتماعي يستند الى اضبط العلوم وادق القواعد

يدخل المتطبب الروحاني اصبعاً من اصابع رجل المريض « المسوس » في القارورة ويصيح في وجه الجني الذي سه مع ابداء الاشارات الحاذقة وعمل الحركات المطابقة « اخرج ، اخرج ، اخرج » لاعتقاده ان الجنون مرض يدل عليه اصل اشتقاق هذه الكلمة وهو دخول الجن في الجسم . وقد يرى المريض المخبول — والمتطبب المخلص معاً — دخاناً او بخاراً متصاعداً من الاصبع ليقيم في القارورة

ان بيئة مثل هذه البيئة تعلل ظواهر المرض « بالمس » او دخول الجان في الاجسام فتعالج المرض على هذا الاساس من الامر والنهي بواسطة التعاويذ والرقيات وهي بيئة لها قائمة بعلوم خاصة ومن امهات هذه العلوم علم الطب الروحاني

ويشاهد الطبيب الجراثيمي الحديث غشاء الدفتيريا (الخانوق) في حلق المريض فيحققه بالمصل الخاص وهو كالترياق يقاوم السموم المنتشرة من جرثومة هذا الغشاء فالطبيب بهذا المعنى يأمر هذه السموم بالخروج ولكن لا بالقول بل بالعمل ويرى بالعين المجردة وبالمجهر زوال الغشاء وما تلبد فيه من الجراثيم ويشاهد زوال الاعراض

ان بيئة مثل هذه البيئة تعلل ظواهر المرض الدفتيري بسموم تفرزها الجراثيم المتراكمة في الحلق وتعالج المرضى على هذا الاساس بمقاومة السموم واخراج الجراثيم من اوكارها وهي ايضاً لها قائمة بعلوم خاصة ومن امهات هذه العلوم علم الجراثيم

غاية البيئتين واحدة هي الحصول على الراحة والسعادة بانقاذ الجسم العليل من المرض ولكن الواسطة مختلفة جد الاختلاف لتباين النظريتين . وقد يرى الناقد الرأيين مطبقين في حجرة واحدة : يرى من الجهة الواحدة الشموع وصور القديسين وكتب الرقيات والتعاويذ على رأس المريض المخنوق لدفع الشر عنه ويرى من الجهة الاخرى حقنة الطبيب

وأنابيب المصل وصبغة اليود على المائدة بجانبه لتطهير جسمه من الادران ايضاً . يعني ان توت عنخ آمون وبقراط وابن سينا وفرخو وكوخ وباستور اجتمعوا معاً للاستشارة الطبية في حجرة واحدة ! أما كون الوفيات في الطريقة الاولى يبلغون الخمسين في المائة وفي الثانية الثمانية في المائة فليس له كبير شأن في تدبير الذهنية العامة . ذلك لان الميتة[1] صفة ملازمة للمجتمع . ولا اصعب على النفس من التغير خصوصاً في العقائد الراسخة والعادات المتوارثة

***

وهكذا نرى لكل عصر من العصور التي لها تاريخ مدون قائمة بعلوم تختلف عن قائمة العصر الآخر ولم ينشأ هذا الاختلاف عن تباين في الغاية بل لنشأ غالباً عن نظر الى الواسطة المؤدية الى تلك الغاية . ومعنى ذلك ان الناس في جميع ادوارهم جعلوا السعادة هدفهم ودونوا من العلوم ما ظنوا انه يوصلهم الى هذه السعادة . فالسعادة التي ينشدها الهندوسيون مثلاً هي التفاني في (براهما) والنوم الابدي بعد المرور في ادوار تتجاوز عشرات الملايين من السنين والواسطة الى تحقيق ذلك هي في كتاب (الفيدا) وهو كتاب « العلم » . لا جرم ان تكون علوم الهندوس المتقدمين هي علوم (الفدا) من ضبط لحروفه ولطق لالفاظه وتجويد لآياته وصرف لكلماته ونحو لجمله وبيان لما تضمن من المعاني

والسعادة التي حرص عليها الناس اجمالاً قبل العصر المادي الحاضر هي السعادة الاخروية فكان حال اليهود والنصارى بهذا المعنى مثل حال المسلمين . فلا عجب اذا نرى قائمة العلوم في الغرب قبل « النهضة » مشابهة لقائمة العلوم في الشرق وكانت كلمة « علم » في الصدر الاول من تاريخنا تطلق على التفقه في الدين . وكانت فردوس الآخرة — والفردوس في كتاب (الزند أفستا) هي الحظيرة او الحوش — في نظر اتباع هذه الاديان الثلاثة الكبرى المتازة بخصائصها المعنوية الراسخة نسخة طبق الاصل عن جنة عدن التي خرج منها آدم وحواء وعيونها رامقة الى قصورها وأنهارها وثمارها وأشجارها . فهم اذا ما دونوا العلم او طلبوه فانما فعلوا ذلك للوصول الى هذه الجنة . والعلم كل العلم هو الذي ينقل اقدامهم على صراطها ويفتح لهم ابوابها

وبتحول الذهن البشري عن الاشتغال بالعلوم الكلامية الى العلوم الحسية وانتقاله من مباحث (انسلم) و (البرتوس ماغنوس) و (اكوياس) و (بطرس لومبارد) و (دونس سكوتوس) وغيرهم من علماء القرون الوسطى الذين جعلوا قاعدتهم الذهنية « الايمان

(١) الميتة في كتب اللغة هي الحالة التي يشعر فيها الشيء وهي غير كلمة تترجم بها كلمة guerria المستعملة في العلوم الطبيعية والاجتماعية عند الافرنج وقد اطلق عليها الترك كلمة « محاربة »

مقدَّم على البرهان » والذين جهدوا الجهود ووجدوا المساعي لتأييد عقائد الكنيسة باقامة الحجج المنطقية الارسطوطاليسية على صحتها وملأوا الكتب في اوربا بنظرية « الحقيقي » و « الامعي » وبالبحث عن عدد الملائكة الذين يمكن ان يرقصوا على رأس الابرة الواحدة او بالسؤال عن الحمار هل يتحرك اذا وضع على مسافة واحدة بين حزمتين من الحشيش ! — ان تحوُّل الذهن البشري عن مثل هذه « العلوم » الى فلسفة القرون الحاضرة الحسية غيَّر قاعة العلوم فصارت مادية تقبل التطبيق وصار الناس بالاجمال — الا حيث بقيت العقائد المتوارثة مستولية — اكثر اهتماماً « بثيلا » يبنونها على ضفة النيل مثلاً منهم بقصر يشيدونه على شاطىء الكوثر . ولعل هذا الشغف العظيم بالسرعة الخارقة الذي امتاز به العصر الحاضر حبب الى اهله البيع بالنقد كما يقول عمر الخيام على البيع بالنسيئة لجعل متلهم الاعلى « بيضة اليوم ولا دجاجة الغد »

***

ولأوغوست كونت الاجتماعي الفرنسوي من اهل القرن التاسع عشر رجح الفضل في ترتيب العلوم الحاضرة وتبويبها ووضعها في قاعة واحدة متناسبة ملتحمة وقد قبل هذه القاعة وقال بترتيبها المستر هربرت سبنسر وغيره من الاعلام مع تعديل طفيف ادخل عليها على ان عدداً عديداً من النقاد حملوا عليها حملة منكرة وذلك لانهم لم يلتفتوا الى القاعدة الاساسية التي تمسك بها (كونت) من اقتصاره في تعريف العلم على تلك الملاحظات والمعلومات الحسية التي يمكن اثباتها بالتطبيق من جهة وعلى اعتباره العلم الواحد مجموعة دساتير وقواعد كلية مستخرجة من الظواهر المحسوسة المتعلقة بهذا العلم من جهة اخرى

ويخرج (كونت) من قاعة العلوم جميع تلك المباحث الفلسفية المتعلقة بما وراء الطبيعة وما اليها من استقصاء الاسباب النهائية التي لا تحدها العقول كما يفعل بعض الذين ضربوا بينهم وبين الطبيعة حاجزاً وانصرفوا بكليتهم الى التخيلات النفسانية من غير وازع علمي يشرف على استقرائهم واستنتاجهم . وقد اطلعنا عليهم في بعض الدروس التي القيناها في ديار الشام اسم « فلاسفة المقاعد » لانهم يحاولون كشف المجهولات وحل معضلة الكائنات بمجرد فكرة تمر لهم او خاطر يمر على بالهم وهم فوق المقاعد جالسون او على الارائك متكئون . ويتعذر على اي باحث في عصرنا هذا ان يلفت نظار رجال العلم الى مباحثه مهما كانت خطيرة ما لم يؤيدها بالتجارب ويقم عليها الحجة بالتطبيق ، حتى ان علم النفس وهو من الاساس علم مجرد متعلق بظواهر الوعي والحس وغير ذلك من الشؤون المعنوية الداخلية قد اصبح من العلوم التي تدرس في المخابر وتعمل فيها التجارب على الحيوان والانسان

والى القارىء القائمة المتسلسلة الملتحمة التي وضعها (اوغوست كونت) بالعلوم مع الاصلاح الطفيف الذي اشرنا اليه . وفيها الرياضيات (وهي اضبط العلوم) المقياس الدقيق الذي تقاس به القيمة الحسية لكل من هذه العلوم :

الرياضيات باعتبارها مقياساً مضبوطاً
(١) الفلك
(٢) الطبيعيات
(٣) الكيمياء
(٤) الحياة
(٥) النفس
(٦) الاجتماع

ورب سائل يقول اين علم اللغات والسياسة والاقتصاد والدين والتشريع مثلاً من هذه القائمة وهل يراد اغفالها وعدم اعتبارها علماً ؟ والجواب عن ذلك ان ما من علم من هذه العلوم الا ويعدُّ فرعاً خاصًّا لعلم الاجتماع العام الشامل بل ان الاستاذ (وارد) لم يشأ ان يدخل علم «الاخلاق» في هذه القائمة لاعتقاده ان علم «الاجتماع المطبق» هو علم الاخلاق بعينه . لان الاخلاق في نظره ونظر المدققين من امثاله هي اصلاح المجتمع البشري بتطبيق النظريات الاجتماعية المستخرجة بالدرس والتتبع

ان لهذه القائمة وجهات حرية بالنظر فهي تبين لنا (اولاً) لحمة النسب بين العلوم واتصال بعضها ببعض اتصالاً متسلسلاً بحيث يصير العلم جميعه وحدة متماسكة وذلك ان العلم الواحد هو ابن العلم السابق وابو العلم اللاحق وتدل (ثانياً) على التدرج من البسيط الى المركب ومن السهل الى المعقد ومن المضبوط الى المشتت كما هو ظاهر من مقابلة علم الفلك وهو رأس القائمة بعلم الاجتماع وهو أكثرها تشعباً وتعقداً . وتوضح (ثالثاً) مقدار المنفعة او الفائدة العملية التي يجنيها الانسان لصحته من هذه العلوم والتي تزداد ازدياداً مضطرداً متناسباً مع هذا الترتيب فالفلك على ما له من القيمة الباهرة في توسيع المدارك واظهار عظمة الكون وتبيين مقام هذه السيارة الطفيفة التي نعيش عليها بين السيارات والثوابت هو اقلها فائدة عملية لان الاجرام السماوية خارجة عن سلطة البشر وتدخلهم ، واما الاجتماع فهو على عكس ذلك اكثرها فائدة لان رواد الاصلاح الاجتماعي يرجون ان يضعوا المجتمع البشري تحت سلطتهم ويجعلوه حقلاً لتجاربهم . وهاهي نتائج اعمالهم الباهرة تظهر في المشارق والمغارب . ولا يظنَّ احد ان العقول التي اشتغلت بتلك العلوم الكلامية والمباحث المتعلقة بما وراء المادة وغيرها من فروع الحكمة الطبيعية هي عقول فاحلة جدباء

ليست لها قابلية ولا فيها اهلية بل يجوز لنا ان نقول ان هذه العقول واكثرها في الشرق تدل على ادمغة من ارقى ما بلغه الانسان في تكامله وليس فيها عيب الا عيب الاتجاه يعني انها اغفلت البوم الحسية التي تقبل التطبيق وولت وجوهها شطر الابحاث الكلامية الجوفاء التي لا ينتهي فيها القال والقيل. ولم يسع البحاثة الاجتماعي الاميركي (لستر وارد) في كتابه (الاجتماع المطبق) الا ان ينصف هذه العقول الشرقية ويوفيها حقها فقد قال فيها ما خلاصته (ص ٤٨)

« انها بممارستها الشؤون العقلية البحت وهو ما يسمى بالتفكير المجرد . . . . . قد اثبتت تفوقها على الاقوام الاوربية لكن الاسيويين عوّلوا على العقليات فقط واهملوا غيرها فهم يعيشون في جو من التفكير الصرف . اما الاوربيون ففي غضون القرون الثلاثة او الاربعة الاخيرة يعملون على اساس الاعتقاد بالمادة . والمادة هي متحركة وهذا وحده يفسر الفرق بين الحضارتين الشرقية والغربية . وقد بقينا حتى السنين الاخيرة نوزنا الحجة العملية على ان تغيراً في الاتجاه او النظرة العالية يغير في نوع الحضارة ولكننا اليوم قد حصلنا على مثل هذه الحجة . فان شعباً اسيويًّا — يريد الشعب الياباني — انتبه الى حقيقة لا مجال للشك فيها وهي ان درس العقل درساً ابديًّا مستمرًّا لا يجني الناس منهُ القوة القومية المنشودة وانما تتولد هذه القوة من درس المادة، وعلى هذه القيدة المستجدة عمل هذا الشعب الاسيوي اعمالاً باهرة انت باخطر النتائج» . ولم يشر الاستاذ وارد في هذا الكلام الى القوة العسكرية المكتسبة التي تسلح بها اليابان فقط — وهي قوة تعدُّ حتى يومنا هذا الشرط الاول للعظمة القومية — بل اشار الى التقدم العجيب الذي تقدمتهُ في سائر ميادين العلم حتى صارت اعلى الامم كعباً في السلم والصناعة . قال « ولو حصل مثل هذا الانقلاب في الهند لنسبه الناس الى الدم الآري (الاوربي) الذي يدور في عروق الهنود ولكن الشعب الياباني هو شعب موغولي. اذن فلا شيء يحمل عليه هذه النتيجة الخطيرة سوى الاتجاه الجديد الذي توجههُ اليابانيون في نظرتهم العالية والانقلاب الخطير الذي نشأ في الفكرة المسئولة عليهم »

هذه شهادة لستر وارد في الشرقيين دوّناها لا ليتخذها اهل المباهاة منّا وسيلة للتبجح العقيم بل للاسترشاد بما نوّهت بهِ من شأن الاتجاه الياباني الجديد الذي اعطى اليابانيين هذا المقام المحمود في امور ضخمة العالية الحاضرة. وانهُ لمن العبث الذي ما بعده عبث ان تحاول الاقوام المأكولة القضاء على ما يحيط بها من عوامل الهلاك ما لم تغير ما بأنفسها من الاتجاه وتطالب السلامة بالوسائل المؤدية الى السلامة